الفكاهة والطغيـــان

للأستاذ عباس محمود العقاد

ملكة الفكاهة نعمة من نعم الحياة ، وخاصة من خواص الإنسان ، وعلامة من علامات الارتقاء . ولكنها خليقة أن تعدّ فى النقم إذا هى سوغت ما لا يساغ وأباحت ما لا يباح ، كالإذعان لحكم طغيان ، والاجتراء على حقوق أو حرمات

سمعت من سعد زغلول رحمه الله أن « أحمد زيور » فى الوزارة أخطر من عبد الخالق ثروت ومَن على طرازه ، لأن احمد زيور لا يثير الغضب فى المصريين بل يحفز فيهم ملكة الفكاهة ويقلب الأمر من جد إلى مزاح ؛ وهم لا يكرهون ذلك، وقد يستمرئونه ويمضون فيه ، فيقبلون على يديه ما لم يقبلوه على أيدى الآخرين ، ويأتى الخطر من هذا الباب

وذكرت هـذا وأنا أقرأ الفكاهات التى يرويها الرحالون والناقدون الاجتماعيون عن الألمان والروس والطليان وسائر الأمم التى يحكمها أصحاب السلطان المطلق فى هذه الأيام

فينبغى أن نعلم أن هذه الأمم تصنع ما يصنعه المصريون أحياناً من مقابلة الطغيان بالفكاهة ، ومن مجازاة السطوة بالنكتة ، فيصول عليها الحاكم وهى تضحك منه ، وتتفكه بالأحاديث عنه ، وتظن أنها أخذت منه بمقدار ما أخذ منها ، فتستريح إلى هذا القصاص!

قيل إن القائد جورنج يحب النكتة البارعة، ويطرب للفكاهة الجيدة ، ويود لو يسمع ما يتداوله الناس من أقاويل السخر والمزاح عن الحكومة الحاضرة فى البلاد الألمانية ، ولكنه لا يصل إليها لخوف الناس من كتابتها أو الجهر بها ، فاتفق وسائق سيارته على أن ينقلها إليه كلما سمع شيئاً منها ، وله خمسة قروش على كل نكتة مقبولة

قال الراوى : فطاب المورد للسائق المحروم وحرص على احتكار البضاعة كلها فى هذه السوق . ثم جاء إلى القائد يوماً بحفنة صالحة من النوادر اللاذعة ، فداخل القائد شىء من الغيظ وأشفق من ذيوع هذا الضرب الأليم من التنكيت ، وقال كأنما يحدث نفسه : « ليضحكوا ما شاءوا ... إنهم لا ينسون على كل حال أنهم أعطونا تسعة وتسعين فى المائة من أصواتهم فى الانتخابات الأخيرة ...! »

فصاح به السائق وقد خاف على مورده المحتكر :

سيدى القائد ! من الذى باعك هذه النكتة ؟ !

وروى الراوون أيضاً أن زوجة شابة انتظم زوجها فى إحدى الفرق العسكرية الحديثة فطال غيابه عن المنزل وامتدت ساعات التدريب إلى ما بعد الهزيع الأول من الليل ، حتى تعودت أن تنام ولا تنتظر أوبته حين يؤوب. وتمادى على ذلك فترة طويلة، فأحبت أن تنبهه بعض التنبيه عسى أن يحتال للخلاص من هذا التدريب أو من تلك المواعيد ، فتركت على الموضع الخالى من السرير ورقة كبيرة أشبه شىء باللوحة التى تكتب للتذكار، على بعض الأنصاب والآثار ، وكتبت عليها : « هنا !... حيث كان يرقد زوجى قبل التحاقه بالفرقة العسكرية » ... فضحك حين رآها . وسمع الجيران بالخبر فضحكوا وتناقلوا الورقة بينهم بضعة أيام ... وسرى الخبر إلى مكتب الاستطلاع فضحك أيضاً ولكنه اعتقل الزوجة أياماً فى معتقل التأديب أو العقاب »

أما فى الروسيا فالفكاهات التى يخترعها الظرفاء للضحك من النظام القائم فيها لا تحصى، ولا تقل فى الرواج عن الفكاهات الألمانية

قيل إن مندوباً من مندوبى الحكومة أراد أن يستطلع رأى الفلاحين الذين يطوفون أو يساقون إلى الطواف بضريح لينين وهو معروض فيه مكشوفاً للأنظار

فسأل واحداً منهم : ما رأيك فيه ..؟ أى فى الزعيم لينين .

فأجاب على البديهة : حاله مثل حالنا ... ميت ولكنه لا يدفن !

ووقف فلاح على مقربة من آلة المذياع وهم يركبونها ، فسمع المهندس يقول : إن كل كلمة تلفظ هنا تدوى فى جوانب العالم كله . فهل منكم من يريد أن يقول « كلمة واحدة » باسم الروسيين ؟ فأومأ الفلاح أن نعم ... وتقدم إلى بوق المذياع فصاح : « النجدة ! »

وقفزت جماعة من الأرانب من الحدود الروسية إلى الحدود البولونية، فدهش الحراس البولونيون لكثرتها وسألوها: ما الخبر ؟ فقال واحد منها : إن مكتب الاستطلاع قد أصدر أمراً بالقبض على جميع الزرافى التى فى الأقطار الروسية ... قال الحارس :

وما شأنكم أنتم وأنتم أرانب ولستم بزراق ؟! فقال الأرنب : « صحيح ! ولكن هل لك أن تثبت ذلك لمكتب الاستطلاع ؟! »

وعمت الشكوى من مكتب الاستطلاع هذا فأشاع الظرفاء الروسيون أن الزعيم ستالين قد أمر بتسريحه وشدد على رجاله أن يتلطفوا إلى الناس غاية التلطف لينسوهم فظاعة ماضيه .

إلا أن الفلاحين الساكين لم يسمعوا بهذا الذى أشاعه الظرفاء البلديون ، فبينما كانت طائفة منهم فى مركبة كبيرة إذ عطس أحدهم عطسة عنيفة سمعها من فى الطريق ، فأطل واحد من رجال مكتب الاستطلاع فى المركبة وسأل : من الذى عطس هذه العطسة ؟

فاضطرب الركب وسرى فيهم الرعب وطفقوا يلكزون العاطس المتوارى أن يبرز نفسه ويحمل وحده وزر عمله ولا يجور على أصحابه جميعاً بجريرة عطاسه ، فلم يسع الرجل إلا أن يعترف بالحقيقة ويقول فى كثير من الوجل والتلعثم : أنا ...!

قال الراوى : فانحنى مندوب مكتب الاستطلاع تنفيذا لامر الزعيم ستالين وقال : يرحمك الله !

ويروى الظرفاء الروسيون أن طوفانا من السباب والتبكيت والتعزير سمع ذات يوم فى الحجرة المجاورة لمكتب الرفيق ستالين . فانتظر الحجاب حتى يفرغ الزعيم من حديثه ، ثم فتحوا الباب ليسحبوا منه الرجل المنكود الذى وقعت على رأسه كل هذه الشتائم والمقذعات ، فما راعهم إلا أن يبصروا المكتب خاليا وليس فيه أحد غير الزعيم

— أين الرجل المنكود الذى كنت تشتمه ؟

— فأجاب الزعيم : أنا هو ... وقد فرغت الساعة من حصة المناجاة !

***

عرضت هذه النوادر و « القفشات » وعرضت معها نوادر المصريين وقفشاتهم للرومان والترك وقره قوش وسائر الحاكين الذين نالوا من المصريين بالقسوة ، ونال منهم المصريون بالنكتة ، فورد على خاطرى هذا السؤال العجيب : لو كنت حاكما طاغيا ماذا أصنع لهؤلاء الساخرين ؟ هل أطلق لهم العنان يرسلون النكات والقفشات حيث يشاؤون ؟ أو أحسب حسابا لعواقب هذه النكات والقفشات فأحجر على أصحابها ومذيعيها وأتعقبهم بالمصادرة والجزاء ؟

إن النكتة تلطف وطأة الظلم وتوهم المظلوم أنه ينتقم لنفسه بعض الانتقام فتهوّن عليه الشدائد وتروضه على الصبر والانتظار ، فهى من ثم معين للحكام على المحكومين

إلا أن النكتة قد تزرى بالهابة وتعصف بالرهبة وتجعل الحاكم المخيف أضحوكة فى الأفواه ومهزلة للساخرين ؛ فهى من ثم مضعف لسلطانه ومجرئ على مقامه ومحرض على الثورة والانتقاض

هى بلسم للمظلومين فهى مقبولة

وهى سلاح للمظلومين فهى مرهوبة

فماذا يحسن بالحاكم المستبد أن يصنع مع هؤلاء المازحين ؟

ليس لهذا السؤال جواب فاصل فيما أحسب ، ولكنى أقرر الحقيقة إذا قلت إن المحكومين لا يحاربون الظلم بالفكاهات والنكات إلا إذا كان للصبر بقية ، وفى قوس الاحتمال منزع كما يقولون ، وإن الحاكمين لا يتسمحون فى قبول الفكاهات والنكات إلا إذا كان للقوة بقية وللثقة بدوام السلطان مجال فسيح

أما إذا ضاقت الصدور ونفدت الحيل فالمحكومون لا يعتصمون بالفكاهة والتنكيت بل يغضبون ويثورون

وكذلك إذا ضاعت ثقة الحاكم بدوام سلطانه لم يصبر على السخرية والمزاح ، وعالج الحجر عليها عسى أن يستعيد شيئا من المهابة والامتناع

وبعد هذا وذاك يجب علينا أن نفرق بين الفكاهات ، وأن نفرق كذلك بين الطبائع التى تتخذها وسيلة لحرب الحكومات

فالفكاهة التى قوامها تلفيق الجناسات اللفظية والملاحظات الشكلية لا تخيف أحداً من العقلاء . أما الفكاهة المخيفة حقاً فهى تلك التى تنفذ إلى العظم وتسرى إلى قرارة الأمور ، ولا ينطبع على هذه الفكاهة إلا أناس يعملون حين يتفكهون ، ويجترئون حين يسخرون .

عباس محمود العقاد

المدرسة العصرية

لتدريس اللغات الفرنسية والانجليزية

والرسم بالمراسلات وبالمدرسة

الشروط ترسل مجانا وقت الطلب

١٢٦ شارع عماد الدين — القاهرة